

إنني لأعلم أنك قد خلقت لزمان غري زميني، وكنت في زمن شعاره الطاعة، التمرد على سلطة الآباء، وعلى املعلمني وعلى أولي الأمر — وتعلمت أول أمري في أب حقري، يضرب على الهفوة وعدم كُت الهفوة، ويعاقب على الخطأ والصواب، ويمرن يده بالعصا فينا كما تمرنون أيديكم على الألعاب الرياضية. وتقدم لك تعليم القراءة والكتابة في إطار من الصور والرسوم والأغاني وما إلى ذلك. أبي على الفول النابت والفول املدمس، وأنت تعيش في روضتك على وكنت أعيش في كت اللبن والشاي والبسكويت وما إلى ذلك أيضا. ثم ملا صبوت تعلمت في املدارس الفرنسية حيث تنقل إليك في تعاليمها كل أساليب املدنية الغربية — وتربيت أنا في وسط كله دين — دين في الكتب ودين في الحياة الاجتماعية ودين في أوساطي كلها. وتربيت أنت في مدارس أو جامعات لا يذكر فيها الدين إلا بمناسبات. ولا يعرف فتاة إلا أن تكون قريبة، ونشأت أنت في وسط تجالسك الفتاة في جامعتك وتشاهدها في إلى ولدي أوساطك وقد أخذت من الحرية مثل ما أخذت؛ ولو عدت لك الفروق بيني وبينك، ولا يزال بيني وبينك وجوه شبه أعمق من هذه املظاهر، فالتغريات بني الناس مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة تغريات سطحية وأمور عرضية؛ أما الإنسان في جوهره والجمعيات البشرية في نزعاتها الأصيلة فترجع إلى أصول واحدة، ومن أجل هذا كانت تجارب السلف تفيد الخلف. فلأقص عليك شيئا من تجاربي التي أعتقد أنها تفيدك، أهم ما جربت في حياتي أني رأيت قول الحق والتزامه، لقد احتملت في سبيل ذلك بعض الآلام، واستفدت منه ثقة الناس بما أقول وما أعمل، واستفدت منه حسن ظنهم بما يصدر عني ولو لم يفهموا سببه، ومع هذا فقد استفدت منه أيضا ماديا أكثر مما استفاد غربي، ومع هذا فقد ربحت قليلا وخسرت كثيرا. فلو حسبت بالدقة ما كسبت وما خسرت وما كسب هؤلاء وما خسروا لوجدتني أسعد حالا وأوفر حظا. فإذا أردت أن تنتفع بتجربتي فالتزم الحق والصدق والعدل في جميع أعمالك مهما تكن النتيجة. نعم رأيت من زملائي من تمسكوا بهذه الفضيلة فخرسوا كثيرا ولكن لم يكن عيبهم أنهم التزموا الحق والصدق والعدل، فلم يكن الذنب ذنب الحق، ولا تتعجلن النتيجة فقد تمس من الحق نارا، ولكن ذلك أشبه ما يكون بالامتحان، إن صبرت له انقلبت النار جنة واللفحة الحارة نسيمًا اعليلًا. 10 رسالة إلى ولدي ومن أهم تجاربي أيضا أني رأيت كثيرا من الناس يخطئون فيظنون أن املال هو كل شيء في الحياة. يبيعون أنفسهم للمال ويحاولون أن يتزوجوا للمال ويضيعون أعمارهم للمال، فمنهم من بدأ حياته يطلب املال على أنه وسيلة ثم استمر في طلبه بعد أن استوفى، ومنهم من صرف حياته وتفكيره في املال وفي الاستزادة منه حاجته منه فانقلب غاية حتى فقد سعاداته بل وفقد نفسه، وقد دلتنى التجارب على أن أسعد الناس من وضع ا ولم يذل له ذلا تاما. ونظر إلى املال على املال في موضعه اللائق به، ودلتنى التجارب على أن عنصر الدين في الحياة من أهم أسباب السعادة. فقد كان الدين في زماننا متزمتا لا سماحة فيه، موضوع على الرف لا يؤبه به. والحياة السعيدة كما دلتنى التجربة حياة ترتكز على الاعتقاد باله يركن إليه ويعتمد عليه، وتستمد منه املعونة ويطلب إليه التوفيق في الحياة، يعجبني من الدين أن يكون سماحا لا غلظة فيه، بل يؤمن صاحبه أن له مجاله وللعلم مجاله، فالعلم لحياة العقل والدين لحياة القلب. بعض تجاربي في الحياة وما أكثرها! ولكني أخشى أن أطيل عليك فتمل، وأحب أن أقدمها إليك جرة فجرة لتستسيغها وتذوقها وتأخذ نفسك بتشربها رشفة فرشفة. وفي ضوء ما أسمع منك ستتوالى عليك كتبي إليك، تقدم إليك تجاربي كأسا فكأسا. والسلام عليك ممن يحب لك الخري ويود أن تكون خريا منه، ويتمنى أن يحيا فيك خريا مما حيي في نفسه والسلام. 11 إلى ولدي ٢ أي بني: إنك الآن تدرس في إنجلترا بعد أن أتممت دراستك في مصر، ولكن يمكن تقسيمهم إلى مجموعات محددة واتجاهات معينة. فمنهم من شعر بأن حريته في مصر كانت مفقودة، فقد تحرر من رقابة الأبوين ورقابة املدرسة، ورأى مجال اللهو في أوروبا واسع ا فسيحا (وأوروبا — على العموم — كفيفة أن تحقق كل رغبة وتوفر كل اتجاه، فمن شاء الجد فالأبواب أمامه مفتحة ومجال الجد لا حد له، من شاء اللهو فالأبواب أمامه مفتحة ومجال اللهو لا حد له) فانغمس في وسائل اللهو وهبها كل ماله وكل تفكيره وكل وقته. ولا يرى جامعته ولا تراها إلا محافظة على الشكل وحرصا على استجلاب املال من أبيه أو من حكومته أو منهما معا، ويحتال على أبيه في تحصيل املال بكل وسيلة، فهو من فرط جده محتاج إلى شراء كثيرا من الكتب، ومن فرط مذاكرته محتاج إلى التردد على الطبيب، وأخريا تنكشف الأمور عن مأساة ويعود إلى بلده ولا علم ولا خلق، وقلما يصلح في مصر لعمل بعد أن فسدت نفسه ومات ضمريه وذهب علمه وانحط خلقه. ومن الدارسنى في أوروبا من كانوا على العكس من ذلك — وهم أقل عددا. هؤلاء عكفوا على دروسهم بكل جد، ولم يعرفوا غري حجرتهم وكتبهم وجامعتهم وطريقهم من البيت إلى الجامعة، وعملهم في مصر إلى عملهم هناك من غري فرق، وظلوا يعملون ويكدون حتى نالوا الدرجة العلمية وأنت التقارير عنهم إلى وزارة املعارف وإلى آبائهم بأنهم مثال الجد والنشاط والنجاح العلمي، ثم عادوا يحملون شهادتهم ويعملون فيما عهد إليهم أن يعملوا. ولكنهم لم تتفتح قلوبهم ولم ترق نفوسهم، 12 رسالة إلى ولدي وهناك طائفة ثالثة هي التي

تعجبني وهي التي أحب أن تسري على منهجها. هؤلاء قد فهموا رسالتهم من بعثتهم على الوجه الأكمل — فهموا أنهم إنما سافروا ليدرسوا علماً وليدرسوا خلقاً — يحضرون لنيل الدكتوراه ويحضرون لشيء أسمى من الدكتوراه، ويبحثون عن سر عظمة هذه الأمة ومواطن قوتها وضعفها والفروق بينها وبني مصر، يتعلمون هذه الدروس من الحياة الاجتماعية في الجامعة ومن الحياة العائلية في البيت، ومما تقع عليه العني املفتوحة والقلب الواعي في الشوارع والحدائق والأمكنة العامة ونحو ذلك. فهو يرى أن في كل منظر درسا وفي كل خطوة بخطوهاً آخر جديداً، إذ ذاك تتجدد نفسه ويحيى قلبه وترتقي كل ملكاته ويصبح مخلوقاً ويعود إلى بلده وقد اكتسب علماً كثيراً وخبرة فائقة. تعلم من جامعتهم إلى جانب دروسه الخاصة أساليب التعليم في البلد الذي سافر إليه في مراحل التعليم المختلفة، وتعلم نظام الأسرة من البيت الذي نزل فيه وما دار فيه من أحاديث وما حدث فيه من أحداث. وهكذا أمتع نفسه وقلبه وعينه في حدود املعقول، وكما اختلف املتعلمون في أوروبا هذا الاختلاف الذي شرحته اختلفوا كذلك في مسلكتهم بعد عودتهم إلى بلادهم. فمنهم الذي عاد إلى بلاده يشيد بمجالي اللهو في أوروبا ويفيض في وصف مغامراته النسائية ويعرج على النماذج الوضيعة من ذلك كله في بلاده فيحتقرها، ويعلن أنه يتمنى العودة إلى النعيم الذي كان ينعم به في إنجلترا أو فرنسا. أما وقد حالت الحوائل بينه وبني عودته فهو ينتهب اللذائذ في بلاده على وضاعتها ما أمكنه مترقباً اليوم السعيد الذي تتاح فيه الفرصة للسفر إلى الخارج حتى يعب من لذائذها وينهل؛ فإن كلف عملا جدي فعلى هامش الحياة. أما نظرتة إلى الحياة وانسجامه مع الحياة الأولى التي كان يحياها قبل سفره فلم يتغري منها شيء. ولكنه ملا عاد إلى مصر فسرعان ما دب إليه 13 إلى ولدي اليأس . وتذكر ما كان قد نسيه من ورق يغيب بني الإدارات أشهراً من غري أن بيت فيه، وما أصبح يعيش فيه في بلده من اضطراب وارتباك وظلم وقذارة. وحاول أول الأمر أن يغري شيئاً من ذلك فلم يستطع، فيئس واستسلم وطوى نفسه على حزن عميق، وأصبحت حالته حالة من فقد عزيزاً عليه لا أمل في عودته وإنما يتسلى بذكره. كل هؤلاء — يا بني — قد رأيت نماذج منهم، إنما أحب — إذاً عدت وقد اكتسبت علماً ونفساً وقلباً — أن تنظر إلى عيوب قومك فترحمهم، وتجتهد — ما أمكنك — في إصلاحهم فإن لم يمكنك الإصلاح العام، لو أن كل مبعوث إلى أوروبا تعلم ونضح ثم عاد ويئس لكان من الخري ألا يبعث؛ فإن هم استولى عليهم «القرف» واقتصروا على التقرز مما يرون وإطلاق ألسنتهم بالعيب في أمتهم والإشادة بذكر أوروبا ومحاسنها . كانت خسارتنا فيهم مضاعفة .